نظامنا الاجتماعي

(١٤) الحرية والعلم والفن

ها قد حان حين الكتابة في علاقة الحرية بالعلوم والفنون بعد ان وقف القراء في المقالة الآنفة على علاقة الحرية بالعقل وعلى أثريهما في التعليم والتعلّم وشئون الحياة. وقد رأينا بادي الرأي أن نبين الفرق بين العلم والفن قبل أن نسدّد اليراعة إلى صدر الموضوع لان الكشف عن حقيقتهما مقدم على علاقتهما بشيء آخر ولا ريب في ان للباحث مناراً كمنار الطريق لا يضل من اهتدى به

فالعلم طائفة من المعلومات نظّمت وفق قواعد عامة يُجرى عليها في الحياة

والفن تطبيق العمل على تلك القواعد كفن التدريس فانهُ تطبيق على المعلومات العلمية الدراسية المعروفة بالتربية العلمية او علم التربية . فينتج ان العلم يعرّفنا الاشياء والفن يعرّفنا كيف نصنعها . وقد يتوارد العلم والفن على شيء واحد كالخطابة والزراعة فقد يكون كل منهما علماً وفناً — فعلم الخطابة هو مجموع الاصول التي يبنى عليها القاء الكلام على جمع من الناس في شأن ذي بال. والمراد بتلك الاصول العلوم اللسانية المعروفة وطرق الالقاء — وفن الخطابة هو تطبيق نظام الالقاء على هذه القواعد مع رعاية الحركات والاشارات والنبرات في تصوير المعاني وتمثيلها على الوجه المطلوب . وعلم الزراعة هو مجموع القواعد التي يبنى عليها زرع الارض، وفن الزراعة هو عمل الزارع وفق القواعد الزراعية ، ولذلك كانت المرانة من اعظم اسباب النجاح في الفنون دون العلوم. وقد يبنى الفن على علم واحد كفن الملاحة فانهُ مبني على علم الفلك وكفن الصباغة فإنهُ مبني على علم الكيمياء ، كما يبنى على اكثر من علم كفن التجارة فانهُ مبني على علمي الهندسة و (الميكانيكا) وكفن الخطابة فانهُ مبني على علوم اللسان وطرق الالقاء كما تقدم. والفن قسمان جميل وآلي فالاول هو استخدام الذوق السليم في احداث أشياء من شأنها إبهاج النفس وذلك إما بالحركة كالرقص والتمثيل وإما بالكلام كالشعر وإما بالصوت كالغناء والموسيقى وإما بالتلوين كالتصوير وإما بالمثال كالنحت وفن العمارة وإما بالشكل كالرسم والخط

والثاني ما ليس كذلك كالزراعة والتجارة والحدادة والبرادة والحياكة والخياطة والطباعة والصحافة والطيران . ولا تنهض الفنون الا بدعائم الحرية في التعلم بعد وقوف

المتعلمين على القواعد الاولية في البداية حتى يطّرد تقدم الفن الجميل بتقدم الابتكارات العجيبة وتنوّع الاخيلة البديعة مما يصادف استحسان الجمهور وينال اعجاب جهابذة الفنون

أما التزام التقليد في الفنون الجميلة بعد اجتياز مرحلة الابتداء فمناه الحجر على العقول والوقوف عند المُثُل المتقدمة التي تخمد في الافكار جذوة الابتكار فيضيع الغرض الاسمى من الفن الجميل ولذلك يحسن الاقلال من قواعد الفنون الجميلة حتى في المرحلة الاولى ليتعود المتعلمون الاعتماد على النفس فتسمو مداركهم ويرقى تخيلهم وعلى الاساتذة إرشادهم إلى الصواب أما الاستكثار من القواعد والاذعان لها فمؤذنان بالخيبة

ولما كان مجال الابتكار في الفنون الآلية ضيقاً كان على ذويها ان يتبعوا القواعد وينهجوا منهج التقليد الذي مداه قوة الملاحظة وحدة المرانة وكلما تاقت نفوسهم الى العمل زادت مقدرتهم على التقليد والمحاكاة فاحسنوا صنعاً ولا يسوغ الابتكار في الفنون الآلية إلا عند الفرق وان ساغ التحسين في أجهزة العمل وادوات الصناعة . لذلك كان نصيب الفنون الآلية من الحرية في النهاية وكان نصيب الفنون الجميلة من الحرية في البداية والنهاية من غير اجحاف بارشاد أو استرسال في محاكاة النماذج إلا ما اقتضتهُ احوال المبتدئين

فمهارة أولي الفنون الجميلة تتجلى في حسن الابتداع ، ومهارة ذوي الفنون الآلية تتجلى في الاتباع. ولذلك نسمع ونرى من آيات الفنون الجميلة كل يوم عجباً ولاسيما في الغناء والموسيقى والنقش والتصوير والتمثيل لدى الغربيين أما الشرقيون ويا حسرتا عليهم فهم مقلدون. وإذا وصل الفن الجميل الى درجة التقليد فقد انحط الى مرتبة الفنون الآلية ولذلك لا نرى في بلادنا الشرقية ابتكاراً أو تحسيناً يذكرنا به الغربيون . وتشتد الحسرة اذا الفينا أنفسنا نتقدم في قديمها الذي رغبوا عنهُ لا في جديدها الذي رغبوا فيهِ . مع ان اسلافنا بمصر من المماليك والعرب والفراعنة قد عنوا بالفنون عناية عظيمة لا يزال التاريخ يذكرها بالاعجاب وهذه مساجد المماليك وكلها السنة تنطق بما كان لهم من القدح المعلى في الهندسة (والميكانيكا) وفن العمارة وجودة النقش والرسم والخط وهذه آثار الفاطميين وغيرهم من الدول الاسلامية في القاهرة ودار الآثار العربية بها. وهذه آيات الفنون التي تشهد لقدمائنا الفراعنة منذ آلاف من السنين ولم تضارعها آيات الغربيين في الابداع ألم ترَ الى نقوشهم في مبانيهم الضخمة البديعة وكتاباتهم العجيبة في الاحجار من غير ان يستخدموا الفولاذ أو يعرفوا الآلات الرافعة التي تستعمل اليوم ولا تزال طريقتهم في التحنيط مجهولة على الرغم من تقدم علم الكيمياء وكثير من العلوم — ولا يستطيع نوابغ

المحنطين اليوم أن يحنطوا الأجساد لتبقى سنوات وهذا تحنيط المصريين القدماء قد ابقى اجسادهم أوقاتاً من السنوات وستبقى ما بقيت الارض والسموات !! ولله درهم فقد كانوا مصدر الفنون والعلوم الفلسفية والقوانين الإدارية وعنهم أخذت الأمم القديمة ولا تزال الحديثة لا تشق لهم غباراً ! ولله در شوقي أمير فن الشعر العربي القائل في آثار فنونهم

شاب من حولها الزمان وشابت ... وشباب الفنون ما زال غضا
رب (نقش) كأنما نفض الصا ... نع منه اليدين بالأمس نفضا
و (دهان) كلامع الزيت مرت ... أعصر بالسراج والزيت وضا
و(خطوط) كأنها هدب ريم ... حسنت صنعة وطولاً وعرضا
و (ضحايا) تكاد تمشي وترعى ... لو أصابت من قدرة الله نبضا
و (محاريب) كالبروج بنتها ... عزمات من عزمة الجن أمضى
و (مقاصير) ابدلت بفتات الـ ... ـمسك تربا وبالبواقيت قضا
صنعة تدهش العقول وفن ... كان اتقانه على القوم فرضا
حار فيك المهندسون عقولاً ... وتولت عزائم العلم مرضى

تلك آثار فنونهم بل آثار علومهم بل آثار عقولهم لأن نسبة العلم إلى القوة العقلية كنسبة الغذاء الى الاعضاء الجسمية فكما ان الجسم يزيد وينمو بانواع المواد الارضية الصالحة له كذلك القوة العقلية تكبر وترتقي بالنظريات العلمية والمعلومات الخارجية في جو الحرية ولهذا السبب أخذ مذللو النوع الإنساني في اطفاء أنوار العلوم لتطفأ انوار العقول مخافة أن تفلت البلاد من ايديهم وينبئنا التاريخ ان رجال الاستبداد تصدوا للعلوم العقلية حتى منعوا الناس عن ذكر اسمها والعروج على رسمها واخذوا يحرفون فلسفة القدامى لتنطبق على اوهامهم وتتفق وأحلامهم حتى لم يبق منها الا هيكل مشوه يأنف العاقل من رؤيته ويفرق العالم من رؤيته وما كان ذلك إلا فراراً من تلك الفلسفة التي مداها وحتمها الحرية وغايتها اسعاد الناس ويأبى المستبدون إلا الاستبداد لشقى الناس ويسعدوا بشقائهم . وقد زعموا ان لديهم العلم الذي لا جهل معه والكنز الذي لا ينفد فحكموا ان كل ما أتى من الخارج يكون خروجاً من دائرة التحقيق ولا يقول به إلا زنديق فيعاقب عقاباً شديداً تتصدع منهُ الكبد ويفرق لهُ الفؤاد فأبادوا بهذه الطريقة كثيراً من رجالات العلم والحكمة بتهمة أنهم يسعون في زيادة مواد العلم والشواهد كثيرة في التاريخ

بهذه الوسائل الاستبدادية سكنت حركة العلم فخمدت ملكة التفكير فراجت سوق الجهالة والأوهام والاباطيل فماتت الشعوب موتاً ادبياً وإن لم تمت حسياً

والجهل موت فإن أوتيت معجزة فابعث من الجهل او فابعث من الرجم

ولا غرو والحالة هذه إذا دبت الشحناء في الافراد وبدت بينهم العداوة والبغضاء وعم الفساد وسادت الفوضى واضطرب النظام الاجتماعي واعتدى الاقوياء على الضعفاء فسلبوهم كل مزايا الحياة حتى الحرية الشخصية إلى ان جاءت الثورات الداخلية والمقاتلات الدموية لتحرير العلم من ربقة الجهل وتحرير العقول من نير الحجر عليها وتحرير العدل من الظلم وكان ما كان مما قصهُ علينا تاريخ ذلك الزمان

وهذه فرنسا في عصر الظلام يحدث عنها لاروس في دائرة معارفه قال (أما المستبدون فيعتبرون أن العلم هو الشجرة الملعونة التي تقتل بثمراتها بني آدم !) أقول قد كذبوا فإن العلوم تقتل المستبدين وتحيي بثمراتها بني آدم وفرنسا الحاضرة أصدق دليل

وإن وجود الإنسان لا يقتضي ظهور التعقل لانهُ سابق لهُ وغير مرتبط بالعلم والجهل إذ هو وجود كوجود الحيوان الاعجم لا مزية لهُ الا بعد التهذيب والتثقيف وقد خلق الانسان قبل ان يفكر وفكر بعد أن خلق فكان كوحش قبل رقي مداركه وصار إنساناً راقياً بعد ان تحلى بحلية العقل المهذب اي بعد أن جدّ في سبيل العلم النافع في عصور الحرية وقد مهد السلف سبيل الحياة للخلف وأوجدوا أضواء الحقائق التي تضيء ظلام الحياة وتكشف عن سبلها المختلفة فلم يبق على الإنسان إلاّ أن يتعرّف ما أمامهُ فيعيش آمناً ميسوراً بدلاً من أن يقضي كل حياته عبثاً دون الانتهاء الى نتيجة من البحث والتنقيب

واتساع دائرة العلم وغزارة المادة ورقي فن الطباعة وانتشار المطبوعات كلّ اولئك قد زاد دائرة الحياة اتساعاً وزاوية الفكر انفراجاً والبصائر نوراً وهداية وقرب إلى الفكر والعين ما يفيدهما من افكار الناس واحوالهم وما تحسن معرفتهُ من الآراء والاحوال وما يرى من صور الحياة ومناظر الطبيعة ، والوقوف على الجديد من هذه المرائي العقلية فيه لذة محققة كلذة النوم التي يعرفها المستيقظ منه ولا يستطيع التعبير عنها بلسان ولا ببيان فإذا كان من الناس من ينكر هذا فانهُ لم يختبر الامر فلم يتعرف حقيقة شعوره وتأثيره النافع في نفسه ومن يطالع صفحة من صحيفة يومية سيارة تمر بالانسان يرَ كثيراً من اطوار الحس والتأثر . فمن لذة ببلاغة قطعة أدبية إلى ألم من اطلاع على حادث مؤلم ومن سرور باجتلاء غوامض سرّ منعش الى انقباض من وقوف على اطوار حادث أليم يسترسل الكاتب في

سرد وقائعه ومن سخط على خلل لم ترقه إلى اشفاق على انسان نكبهُ الدهر . كل هذه الانفعالات التي تحرك اوتار الشعور فتزعج بها النفس او تطمئن وكل هذه المرائي والمشاهد تتصل بالعين ويتصورها الفكر بمطالعة الصحيفة فكيف بالانسان إذا اجتلى صحائف الكون وتأمل اسرار المخلوقات فالزهرة النابتة على ضفة نهر هي عند الجاهل زهرة ولكنها عند العالم عالمٌ عظيم . واذا كان حب الاطلاع غريزة في كل انسان فلنعمل على انمائها بالمشاهد الكثيرة وهي التي تقوى الملاحظة وهي دعامة الاستنباط والاستقراء وربط الاسباب بالمسببات وهذه كلها سلم الرقي العقلي الذي تصعد فيه العلوم والفنون لتحيا الامة حياة حرة سعيدة ولذلك كان اعظم الامم نصيباً في الحرية اعظمها نصيباً في العلوم ولاسيما علوم الحياة التي تتجدد ما تجددت الافكار واتصلت حلقات المباحث بعضها ببعض في جوّ السلام وموطن النظام . وفي هذه الاشارة ما يغني عن العبارة

وكأني بالقراء يسألون قائلين . ما السبب الذي رقى الفنون دون العلوم في كثير من العصور الاستبدادية لدى بعض الأمم القديمة والحديثة كما كانت الحال في ايطاليا في القرون الوسطى وكما كانت الحال في مصر في عهد الفراعنة وإن كانت العلوم لديهم راقية إلا أن الفنون كانت أرقى منها وكما كان الحال في مصر ايضاً في عهد المماليك وكما نرى بعض الدول الاستعمارية لا تقف عقبة في سبيل تقدم الفنون بالمستعمرات وقوفها في سبيل تقدم العلوم ولاسيما العقلية منها — والجواب عن هذا السؤال يتجلى في الغرض من الاستبداد وهو ان يستأثر المستبدون بالمنافع العظيمة كلها ويحرمون غيرهم إياها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ولا يكون ذلك الاستئثار إلا اذا جهل الناس حقوقهم في الحرية والاخاء والعدالة ولا ريب ان العلوم العقلية وحدها هي التي تعرفهم تلك الحقوق ولذلك يتقلص ظل الاستبداد والمستبدين متى عرف الناس حقوقهم واذا وجد قليل من تلك الحقوق فان الله سبحانهُ وتعالى يبارك فيه حتى يكثر ولا غرو اذا كانت المجالدات في استمرار بين الاستبداد وحرية العلوم والعقول بما يرى على الصحف السيارة وسائر الخطابة وفي المدارس الحرة وتاريخ تركيا ومصر خير شاهد واصدق دليل . اما الفنون فلا ضرر منها على المستبدين اذا استثنينا فن الطيران والفنون الحربية وهذه لا تكون في الشعوب المحكومة عادة . وقد تصادر الفنون أيضاً اذا تعارضت في التجارة هي وفنون الامم الحاكمة او الموالية لها والامثلة كثيرة معروفة . والسلام ؟

عبد الرحيم محمود

المدرس بمدرسة المعلمين الثانوية